الفصل الثانى

اختيار موضوع البحث

الاختيار بالنسبة للطالب الجامعى – الاختيار بالنسبة للباحث فى التاريخ – بعض القواعد – بعض الأمثلة .

إن أول مسألة تواجه الباحث المبتدئ فى دراسة التاريخ هى مسألة اختياره موضوعًا للبحث . والمسألة بالنسبة للطالب الذى يبدأ دراسته فى المرحلة الأولى من الجامعة ، تختلف عنها بالنسبة للباحث الذى أخذ يتطلَّع إلى الدراسة العلمية المنتجة .

فالطالب المبتدئ فى التعليم الجامعى لا يُنتظر منه فى الغالب أن يقوم ببحث علمى مبتكر أصيل ، يستخلص فيه حقائق تاريخية مجهولة ، أو يكشف عن مجموعة من الوثائق لم تكن معروفة من قبل . ولكن المطلوب منه هو أن يتوفر على تحصيل وسائل الإعداد والتدريب التى تؤهله للعمل العلمى فى المستقبل .

والطالب فى أثناء دراسته الجامعية الأولى ، يختار بإرشاد أستاذه ، بعض الموضوعات المدروسة ، لا لكى يأتى فيها بجديد ، بل للتمرين والتدريب والاقتباس وهو فى هذا يشبه دارس الكيمياء أو الطبيعة أو التشريح ، الذى يقوم بأداء التجارب المعروفة والتى ثبتت صحتها نهائيًّا لكى يتدرب ويعرف ما عرفه غيره من قبل .

ويستطيع طالب التاريخ أن يختار موضوعات منوَّعة من الفروع التى يدرسها . ويمكنه أن يبحث موضوعًا عامًّا ، مثل كتابة ملخص عام عن تاريخ نابليون فى حيز محدود . وهو يعتمد فى ذلك على القليل من المراجع الأساسية عن هذا الموضوع التى يأخذها عن أستاذه ، أو التى يستخرجها بنفسه من كتب المراجع ، فيقتبس ويدوّن منها مذكراته . وينبغى أن يلاحظ وضع أرقام الصفات للكتاب أو الكتب التى أخذ منها ، على هوامش أوراقه ، حتى يمكنه الرجوع إلى تلك الكتب إذا اقتضى الأمر ذلك . ثم يجمع ما حصل عليه من المعلومات ، جاعلاً نُصب عينيه التمييز بين مجموعاتها التفصيلية التى تتعلق كل منها بنقطة جزئية

محدّدة ، ثم يقارن ويمزج بين هذه الجزئيات بعضها وبعض . ثم يعرض بإيجاز نشأة نابليون وتعليمه وشخصيته ، وتدرّجه فى المناصب ، وحروبه فى أوروبا ، ثم فى الشرق ثم فى أوروبا ، وحكومته وإدارته ، وظروف أوروبا فى عهده ، ووقوف إنجلترا فى سبيله ، وتألّب أوروبا عليه ، ثم سقوطه وحياته فى المنفى . وسيتجاوز الطالب فى هذه الحال عن كثير من التفصيلات والحركات المحلية ، ويكتفى بالمسائل الهامة ، سواء أكانت حوادث الحروب أم مشاكل السياسة الداخلية أم الخارجية *.

وبعد ذلك يتدرج الطالب فيختار جزءاً محدداً من الموضوع العام المشار إليه ، مثل حملة نابليون على الروسيا فى سنة ١٨١٢ . فيبحث الظروف التى أدت إلى تلك الحملة ، ويتتبّع سيرها والمعارك التى حدثت ، ووصول نابليون إلى موسكو ، ثم ارتداده وإخفاقه وما لحق به من الخسائر ، وما ترتب على ذلك من النتائج فى فرنسا وفى أوروبا . وهو فى هذا سيبحث موضوعاً أضيق من الموضوع السابق ، ولكن بحثه سيكون بالضرورة أكثر عمقاً ، وإلمامه بتاريخ نابليون سيجعله أقدر على دراسة هذه الحملة الروسية .

ثم يتدرج الطالب إلى بحث نقطة تاريخية أكثر تحديداً ، مثل معركة واترلو فى سنة ١٨١٥ . وهو فى هذه الحال سيدرس الظروف التى أدت إلى هذه المعركة ، ويقارن بين القوى الحربية لكل من فرنسا وإنجلترا وپروسيا ، ثم يدرس أرض المعركة وخططها ، ويتتبع العمليات العسكرية ، وما قام به ولنجتون وبلوخر ، وحالة الجوّ ، وتأخر وصول النجدة الفرنسية ، ويوضّح كيف هُزم نابليون ، ويشرح

---

* Lavisse, E. et Rambaud, A. : Histoire Générale, 12 vols. Paris, 1893-1901. vol. IX. 1800-1815.

The Cambridge Modern History, 12 vols. London, 1904-1910. Vol. IX. Napoleon.

Rose, J.H. : The Life of Napoleon I. London, 1929.

Rose, J.H. : The Personality of Napoleon. London 1929.

Ludwig, E. : Napoleon, trans. by Eden and Cedar Paul. London, 1929.

ولهذا الكتاب ترجمتان عربيتان ، فقد ترجمه عادل زعيتر عن الترجمة الفرنسية ، وترجمه محمود الدسوق عن الأصل الألمانى . وعلى الرغم من فائدة الترجمة إلى العربية فن الأفضل لطالب التاريخ أن يقرأ الكتاب فى أصله أو فى ترجمة أوروبية له لكى يكون ذلك سبيلا إلى التقدم فى اللغة الأوروبية التى يختارها .

ما ترتب على ذلك من النتائج * . وإن بحثه للموضوعين السابقين سيجعله أقدر على دراسة هذه الناحية الأخيرة الأكثر تحديداً . وسيعلّمه هذا التدريب التدريجى فائدة الإلمام بموضوع أوسع وانتقاله منه إلى نقط أكثر تحديداً . وسيعلّمه هذا التدرّج ضرورة الاهتمام بالجزئيات مع عدم إغفال الروح العام والنظرة العامة إلى العصر الذى يدرسه ، إذ لا بد من العناية بهاتين الناحيتين معاً على اتساق وتوافق .

ويلاحظ أيضاً أنه من بين التدريبات المفيدة ، للطالب فى الدور الأول من دراسته الجامعية ، أن يختار كتاباً فى موضوع بعينه — وليكن باللغة العربية فى أول الأمر — ولتكن صفحاته ٣٠٠ مثلاً — ويلخصه فى ١٠٠ صفحة أولاً ، ثم يلخصه فى ٥٠ صفحة ثانياً ثم فى ٢٠ صفحه ثم فى ١٠ صفحات. ثم يطبق هذا على كتب أخرى أجنبية — ولا بد له من أن يُحسن معرفة لغة أجنبية واحدة على الأقل — وسيجد أنه قد أفاد فائدة طيبة ، وتعلّم القدرة على الاستيعاب والتركيز ، فضلاً عما يكسبه من المعلومات التاريخية الواردة فى الكتب التى اختارها ، وما يجنيه من الحصيلة اللغوية والفكرية ، بالقراءة ، والترجمة ، والاقتباس ؛ والتدرّب على الإيجاز والتركيز والكتابة .

وكذلك يستطيع الطالب أن يدرس بعض الوثائق الأصلية المطبوعة فى بحث موضوع معين ، كما يمكنه أن يدرس بإرشاد أستاذه بعض الوثائق المخطوطة . لكى يستخرج منها بعض الحقائق اللازمة لبحث مسألة معينة. وأحياناً يشترك بعض الطلاب مع أساتذتهم فى دراسة بعض الأصول التاريخية ، ويقومون بنشرها نشراً علمياً . ويكون هذا كله بمثابة تدريب وإعداد للمستقبل الذى يتطلع إليه دارس التاريخ .

ويلاحظ أن ما ينطبق على طالب التاريخ المنتظم فى الدراسة الجامعية ، يمكن أن ينطبق على كل شخص لم تُتح له فرصة التعليم الجامعى ، أو لم تتح له فرصة دراسة التاريخ بالجامعة ، ويشعر فى نفسه بالميل إلى دراسة التاريخ والكتابة فيه .

---

* Becke, A.F. : Napoleon and Waterloo. London 1939

Esposito, V.J. and Elting, J.R. : A Military History and Atlas of the Napoleonic Wars. London, 1964.

وهذا هو التدريب الذى قمت به بإشراف الأستاذ جرانت بكلية الآداب فى القاهرة فى ١٩٣١ وقبل صدور المرجعين المذكورين .

وليست هناك حدود أو موانع أمام الراغب فى الاستزادة من سبل المعرفة ، ولكن لا بد من التزوّد بوسائل هذه المعرفة وأساليبها ، إذْ لا تكفى الرغبة وحدها فى بلوغ الهدف المنشود . وينطبق على هذا الدارس — العلمانى — الراغب فى دراسة التاريخ وكتابته ، ما ينطبق على الطالب الذى تخرّج فى الجامعة ورغب فى أن يمضى قُدُماً فى دراسة التاريخ .

وحينما يتم الطالب مرحلة التعليم الجامعى ويحصل على درجة جامعية ، وينوى مواصلة دراسته لتاريخ ، فإن اختيار موضوع البحث يبدو فى صورة جديدة . فى هذه الحال يجب على الباحث أن يلاحظ أن عليه أن يختار بنفسه موضوع البحث الذى يروق له ، وعلى الأستاذ المشرف أن يتحقق من أنه يفعل ذلك . والعلاقة القديمة التى كانت قائمة بين الطالب وأستاذه ، ينبغى أن تتغير وتتحول إلى علاقة قائمة على أساس من المساواة ،وعلى تحمُّل المسؤولية ، وعلى العمل العلمى المشترك ، وعلى النقد الحرّ والتقدير المتبادل . والباحث المبتدئ فى هذه المرحلة الذى يُضطر إلى الخضوع لرأى أستاذه فى اختيار موضوع البحث ، والأستاذ الذى يقبل ذلك ، أو الذى يحاول أن يُملى على طلابه موضوعات معينة — كلاهما مخطئ . وصحيح أن الباحثين المبتدئين الذين يمكنهم الاستقلال فى اختيار موضوعاتهم قليلون ، وربما لا يعرفون كل ما يتعلق بالعصر أو الناحية التى يرغبون فى دراستها . ولكن الباحث يمكنه فى هذا الدور استيضاح رأى أساتذته الذين يمكنهم إرشاده فيما غمض عليه ، دون أن يُملوا عليه رأياً معيناً ، إذْ أن الاختيار النهائى لموضوع البحث التاريخى أو تعديله أو تركه إلى موضوع آخر ، ينبغى أن يُترك للباحث لكى يُقرر بنفسه ما يراه * .

والباحث فى هذا الدور لا يستطيع أن يبحث أى موضوع كان ، إذْ أن المطلوب هو أن يقوم ببحث أصيل مبتكر فى العلم (original) ، ويكشف عن حقائق تاريخية جديدة . فلا يكون البحث فى هذه الحال بناء على الرغبة فحسب بل بناء على ما يجب أن يُبحث أو ما يُمكن أن يُبحث . وقد يُقال إن الباحث لا يختار الموضوع التاريخى ، ولكن الموضوع التاريخى هو الذى يختار الباحث .

* Crump, C.G. : History and Historical Research, London 1928. p. 42.

لى الباحث أن يرتاد المناطق المجهولة ، وأن يشحذ أسلحته وكفايته ، ويتحدّث ، ويفكر ، حتى ينبثق أمامه الضوء الجديد .

فالباحث المبتدئ فى هذه المرحلة الثانية من الدراسة ، قد يثير اهتمامه بعض المسائل فى تاريخ اليونان القديم ، أو فى تاريخ العصور الوسطى ، أو فى تاريخ إيطاليا ، أو فى تاريخ الروسيا . فلكى يمضى فى بحث إحدى هذه النواحى ينبغى عليه أن يعرف العلوم المساعدة الرئيسة المرتبطة بها . وإذا لم يكن يعرفها فيجب عليه أن يقرر من أول الأمر بصراحة : أهو مستعد أو قادر على أن يتعلمها ؟ أهو مستعد لأن يتعلم اليونانية القديمة أو اللاتينية القديمة أو لاتينية العصور الوسطى أو الإيطالية أو الروسية مثلا ؟ أهو مستعد لأن يتعلم ما يتصل بموضوعه من العلوم المساعدة الأخرى ؟ فإذا لم يكن مستعدًّا أو قادرًا على أن يفعل ذلك وجب عليه أن يعدل عن المضى فى بحث موضوع تُعوزه فيه الوسائل الضرورية ، ويمكنه أن يتجه إلى مجال بحث آخر يكون ذا خبرة بأصوله وقواعده أو على استعداد لأن يحصّل ذلك .

والمبتدئ فى البحث التاريخى العلمى ينبغى أن يراعى بعض المسائل . فليس من الضرورى دائمًا تحديد عنوان الموضوع من أول الأمر . ويكفى تحديد العصر والنواحى التى تصلح موضوعًا للبحث فى نطاق معين . أما التحديد النهائى فيتم فى الغالب بعد المضىّ شوطًا فى القراءة والبحث . وعلى الباحث أن يحدد بصفة تقريبية الزمن الذى سيخصصه لبحث موضوعه . والباحث المبتدئ محتاج إلى بعض الوقت لكى يتقصّى فيه أحوال العصر الذى يكون موضوع بحثه جزءًا منه . وتحديد الوقت التقريبى مرتبط بتحديد الموضوع . فينبغى ألا يختار موضوعًا طويلا ، إذْ أن اختيار ناحية أو مسألة محددة يُمكّنه من إنجاز بحثه فى وقت مناسب ، مع الإتيان فيه بجديد على العلم ، ويحسن أن تكون جزءًا من موضوع عام مترابط البناء ، لكى يتسع المجال أمام الباحث لمواصلة دراساته فى المستقبل .

فلا يجوز للباحث الذى يريد أن يكتب بحثًا علميًّا تاريخيًّا — لا يجوز له أن يتخذ تاريخ الدولة الأيوبية بأكمله موضوعًا للبحث ، لأنه موضوع طويل .

فالأيوبيون حكموا دولتهم من سنة ١١٩٦ إلى سنة ١٢٥٠م . ودراسة هذه الفترة دراسة عميقة مع كشف حقائق جديدة عنها لا يمكن أن يتم فى سنوات قلائل . وإذا أصرَّ الباحث على القيام بهذه الدراسة فى فترة محدودة من الزمن ، فلن يخرج منها بنتيجة أكثر من تلخيص واقتباس ما هو موجود عن هذا الموضوع فى المراجع السابقة عليه .

أما إذا خصّص وقته وجهده فى نفس الفترة المحدودة من الزمن ، لبحث ناحية معينة بالذات من تاريخ الدولة الأيوبية ، مثل تاريخ صلاح الدين ، أو تاريخ الملك العادل ، أو تاريخ التجارة فى عهد الدولة الأيوبية ، أو نظام الحكم فى عهد تلك الدولة ، أو معركة حربية معينة ، فإنه يستطيع فى هذه الحال أن يسبرِ غور الأرض المجهولة ، ويكشف عن حقائق تاريخية جديدة . وبديهى أن الوقت والجهد اللذين يُخصّصان لفترة أقصر يأتيان بنتائج علمية أعمق وأدق مما لو خصّصا لفترة أطول امتداداً . وإن وضع مؤلف علمى دقيق عن عصر الدولة الأيوبية بأكمله لا يمكن أن يتم إلا بعد دراسة جزئيات هذا العصر ، وبعد الكشف عن كل أو أغلب الحقائق التاريخية التى يُمكن الوصول إليها .

وما يُقال عن عصر الدولة الأيوبية ينطبق تماماً على كل موضوع تاريخى آخر ، منذ أقدم العصور حتى الأزمنة الحديثة ، وفى كل أقطار المعمورة . والمؤلفات التى لا يُراعى فيها ذلك لا تُعدّ كتباً علمية ، ولكنها قد تُعدّ كتباً ثقافية نافعة للقارئ العام .

وكذلك ينبغى أن يلاحظ الباحث عند التفكير فى اختيار موضوع بحثه ميله — بغير تحيز — أو استعداده الخاص ، سواء أكان ذلك فى الناحية السياسية أم الاقتصادية أم الدينية أم العسكرية أم الحضارية . . . وليس هناك ما يدعو الباحث إلى أن يقسر نفسه على ولوج ميدان لا يشعر فى نفسه بالميل إليه. وعلى العكس فإن طَرْقَ المجال الذى يميل إليه الباحث يجعله أقدر على العمل وأقوى على كشف الحقائق التاريخية .

ومن الضرورى للباحث أن يمر كذلك خلال المرحلة التالية ، قبل أن يستقر على اختيار موضوع معين ، وتُلخص هذه المرحلة فيما يلى : هل الموضوع الذى

فكّر فيه الباحث يحتاج إلى أن يُبحث ؟ ألم يبحث من قبل بحثًا علميًّا ؟ أم هل بُحث بطريقة غير مستوفاة ؟ وألم تُدرس المادة الأصلية المعروفة عنه ولم تُنقد ولم يُستخلص مضمونها على الوجه الأكمل ؟ وهل وُجدت — أو هل يمكن أن يُكشف عن أصول تاريخية جديدة تبرّر إعادة بحث هذا الموضوع من جديد ؟ إذا توفرت بعض هذه الشروط ، فمعنى ذلك أن الموضوع قابل للدرس والبحث * .

والمسألة الأخيرة التى ينبغى مراعاتها فى هذا الصدد ، تتعلق باختيار موضوع البحث فى نطاق ما يُصطلح على تسميته بالعصر الحديث أو بالتاريخ المعاصر . يُلاحظ فى هذه الناحية أن بعض علماء التاريخ يرون أن التاريخ الحديث يبدأ منذ القرن السادس عشر ، ويرى آخرون أنه يبدأ بعصر النهضة ، دون أن يجعلوه وحدة بذاتها منفصلة عن التاريخ الحديث . ويرى بعضٌ أن ما يُصطلح على تسميته بالتاريخ المعاصر ، يبدأ منذ الثورة الفرنسية الكبرى فى سنة ١٧٨٩ ، على حين يرى غيرهم أنه يبدأ منذ حرب السبعين . ومن المصطلح عليه كذلك أن التاريخ كموضوع للدراسة العلمية لا يجوز أن يتعدّى فترة تبعد مدة خمسين سنة — على الأقل — بالنسبة للوقت الذى يتناوله فيه الباحث بالدرس والتأليف العلمى .

ويرجع هذا التحديد إلى محاولة إعطاء المؤرخ الفرصة لكى يبعد — بقدر المستطاع — عن التأثر الشخصى — من حيث الرغبة فى المنفعة أو الخشية من وقوع المضرّة ، أو الانسياق وراء الدافع أو التيار العام ، الذى من شأنه أن يعوقه ، فى أحوال كثيرة ، عن وزن المسائل وتقدير الظروف تقديرًا أقرب إلى الحق والعدل والواقع التاريخى .

ويرجع أيضًا هذا الاصطلاح على فترة الخمسين سنة — وبصفة أساسية — إلى أن دور الأرشيف التاريخية لا تفتح أبوابها للباحثين إلا بعد انقضاء تلك المدة ، وذلك مراعاة للمصالح السياسية أو العسكرية التى تحرص كل دولة على رعايتها بقدر المستطاع . وصحيح أن الحكومات قد تنشر بعض الأوراق الرسمية التى تمس مسائل أكثر قُربًا إلينا ، ولا شك فى فائدتها للباحثين ، ولكن هذا لا يعنى أن هذه الحكومات قد نشرت كل أو أهم ما عندها بشأن بعض المسائل المعينة ،

---

* Fling: op. cit. p. 37.

فهى لا تنشر إلا ما ترى أنه يحقق مصلحتها ، وتُخفى ما عدا ذلك . وحتى الوثائق الرسمية التى تبيح الحكومات نشرها فور الانتهاء من موضوعها ، لا تُعطى صورة حقيقية لخفاياها ، ولما يُحتمل أن يكمن وراء سطورها ، لأن الحكومات لا تنشر المحاضر الرسمية الخاصة بها ، أو لا تنشر مسودات تلك المحاضر ، كما لا تنشر مسودات الوثائق الرسمية ذاتها ، وفى العادة يُدوّن عليها ملاحظات أو تعليقات ، أو تُغيَّر فيها جمل وتعبيرات ، أو ينالها حذف أو إضافة جمل أو كلمات . وهذه المسودات تظل محجوبة عن الباحثين حتى تنقضى فترة الخمسين سنة المشار إليها . وكلما تقدم الزمن تظهر أوراق أو مذكرات أخرى غير رسمية تُلقى أضواء على موضوع الدراسة . وناهيك بالوثائق السرية (top secret) التى يكتبها رجال الدولة والمسؤولون والتى تتناول المسائل الخطيرة وهذه ربما تظل محجوبة عن الدارسين فترة أطول ، قد تبلغ القرنين من الزمان !

وفضلا عن ذلك فإن مرور فترة الخمسين سنة — على الأقل — بين الزمن الذى يعيش فيه الباحث وبين زمن الموضوع الذى يتناوله — يُحقق الفرصة الزمنية التى يهدأ فيها مرجل الحوادث التاريخية . ويتبلور مضمونها ، وبذلك تصبح أدنى إلى الفهم والدرس والاستيعاب . ويكون دارس التاريخ فى هذه الناحية أشبه بمَن ينظر إلى صورة أو تمثال ، فلا تتضح له معالمهما ، ولا يمكنه أن يتذوّق ما فيهما من فن أو جمال ، إلا إذا باعد بينه وبينهما بمسافة معينة ، بحيث إنه إذا ازداد منهما اقترابًا ، نقصت قدرته على استجلائهما ، بل ربما عجز عن رؤيتهما تمامًا .

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن المثل الأعلى لكتابة التاريخ كتابة علمية ، يقف عند القرن السابع عشر . وذلك لأن أحوال أوروبا والعالم كانت قد بلغت عندئذ حدًّا من البناء والتشكّل والاستقرار ، بحيث تصلح عصوره مادة للدراسة العلمية الرصينة . وعندهم أن القرن الثامن عشر قد شهد أحداثًا وتطورات جديدة شملت شتى مرافق الحياة ، من اختراع وصناعة ، واتساع سياسى من نوع جديد ، ومن أفكار ثورية سياسية واقتصادية واجتماعية جديدة . ومن أساليب مبتكرة فى الفنون والآداب والعلوم ، مما لا تزال تؤثر فى مصائر العالم حتى الوقت الحاضر على

نحو كفيل بأن يؤثر على الباحث ، بحيث يتعرض لتيارات جارفة ، من شأنها أن تقلل من مقدرته على دراسة التاريخ دراسة علمية موضوعية خالصة من التحيز والهوى بقدر المستطاع .

ولا يعنى هذا بداهة أن يمتنع الدارسون كافةً عن تناول الأحوال القريبة أو الجارية بالبحث والدرس ، إذْ لا بد من أن يكتب أهل العصر عن عصرهم كل ما يمكنهم أن يكتبوه . فهم يستطيعون أن يدوّنوا آراءهم وملاحظاتهم ومذكراتهم ومراسلاتهم ومعرفتهم بالشؤون الجارية ، مِمّا لا يتاح للاحقين عليهم أن يقوموا بتسجيله ، ولكن لا يمكن أن يُعدّ ما يكتبونه دراسة علمية تاريخية ، بل يُعدّ كمادة تاريخية تصلح للدرس والبحث لاستخلاص التاريخ منها فى المستقبل .

وإن دراسة الشؤون الجارية فى أمة من الأمم ، لَتَتَدَخل فى نطاق العلوم السياسية أو القانونية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الإحصائية أو الأنثروبولوجية أو الصحيفية أو الإعلامية . . . وهذه كلها دراسات حيوية وجوهرية ، إذْ تُطلع المعاصرين على مشاكل المجتمع الذى يعيشون فيه ، وتُوجههم إلى تلمُّس الحلول المناسبة الكفيلة بتحقيق مصالحهم ، وترسم الخطط للتقدم والنموّ الذى يطمحون إلى بلوغه ، وإغفال هذه الدراسات يُعدّ قصوراً عن إدراك حاجات المجتمع . ولكن هذه الدراسات ليست داخلة فى اختصاص التاريخ بالمعنى العلمى الدقيق .

ويلاحظ أن بعض المشتغلين بالدراسة التاريخية بمفهومها العلمى ، يكتبون أحياناً فى الشؤون الجارية ، ولكنهم يعترفون فى الوقت نفسه بأن ما يكتبونه فيها لا يُعدّ من التاريخ ، بل يكون من باب التأمل أو الملاحظة أو إبداء الرأى فى مسألة من مسائل الساعة ، وليس هذا هو موضوع هذا الكتاب .

وكيف يمكن للباحث المبتدئ أن يتثبّت من توفر بعض الشروط التى تقتضى منه الإقدام على البحث فى الموضوع الذى يتطلع إلى دراسته ؟ الطريقة العاجلة هى أن يبادر إلى استشارة أحد المختصين فى مجال البحث التاريخى المعيَّن فى البلد الذى يعيش فيه ، أو فى بلد آخر بطريق المراسلة .

وإذا تعذّر عليه الوصول إلى ذلك الإخصائى ، أو حينما يريد أن يمحّص

— ما يكون قد أشار عليه أحد المختصين ببحثه — يستطيع أن يمضى بنفسه فى استقصاء الموضوع الذى يعنيه . فلكى يعرف الباحث المراجع العامة والخاصة التى تتعلق بذلك الموضوع ، وهل اعتمدت على كل الأصول المعروفة ، يلزمه الاسترشاد بفن كتب المراجع (البيليوغرافيا) . والتأكد من أن الأصول التاريخية الموجودة قد استُخدمت بطريقة علمية صحيحة ، يدخل فى باب نقد الأصول والمصادر . ومسألة البحث عن إمكان العثور على مادة أصلية جديدة عن الموضوع ، تُعرف عن طريق البحث والتحرّى فى دور الكتب ودور الأرشيف التاريخية . وسوف نعرف أشياء عن هذه النواحى فى الفصول التالية . وإذا لم يتحقق بعض هذه الشروط فى موضوع البحث ، فلا معنى مطلقاً للاستمرار فى محاولة دراسته دون جدوى. ولا بد إذاً من العدول عنه إلى موضوع آخر يمكن الإتيان فى بحثه بجديد .

وينبغى ألا يكون غرض الباحث ،مجرد الحصول على درجات جامعية لتحقيق أغراض معينة . فمن الممكن لشخص ما ، أن يتوفّر على دراسة موضوع معين فى زمن محدد ، ويخرج بكتابة بحث لا بأس به ، وينال به درجة علمية . ولكن لا يعنى هذا أنه قد بلغ نهاية الشوط أو أنه أصبح مؤرخاً ، لأن الدرجة العلمية لا تزيد عن كونها ثمرة تجربة أولية ، ولا تُعدّ سوى بداءة الطريق . والباحث المخلص لا يكفّ عن متابعة دراساته التاريخية بحصوله على الدرجة العلمية . وإذا جعل الدارسون هدفهم الأساسى هو الحصول على الدرجات العلمية وما يرتبط بها من المنافع ، فلن يكون لهم من العلم إلا طلاء ومظهر خارجىّ . والعلماء جميعاً — ومن بينهم علماء التاريخ — لا يُصبحون علماء إلا إذا أشربت نفوسهم روح العلم الخالص ، وبحثوا العلم للعلم عن لذة ذاتية ورغبة أصيلة * . ومن البديهى أن ثمرة جهود هؤلاء لن تقتصر على ذواتهم فحسب ، بل ستؤول فى النهاية إلى عشيرتهم وقومهم وبلادهم ، وربما إلى البشرية بأسرها .

وما الأعمال والبحوث التاريخية العلمية التى ينبغى أن يقوم بها الباحثون فى مصر ؟ صحيح أننا أمة ذات تاريخ طويل مجيد ، وأن بلادنا تضم آثاراً وأصولا تاريخية تُنبئ عن غزارة تراثنا القديم والوسيط ، ولكننا لا زلنا فقراء ومتأخرين

---

* Crump: op. cit. p. 41, 46.

فى ميدان البحث التاريخى بالمعنى العلمى الحديث . ولقد سبقنا الغرب بمراحل هائلة فى كل أدواره ، مثل نشر الفهارس ، ووضع كتب المراجع (البيليوغرافيات) المتنوعة ، وجمع الأصول التاريخية ، ونشر بعضها ، ووضع المؤلفات التى لا حصر لها فى مختلف أنواع التاريخ ، فى كل عصوره ، فى تاريخ العالم بعامة ، وفى تاريخ الدول والشعوب بخاصة ، سواء أكانت المراجع التى تتناول التاريخ العام أم المراجع التى تبحث عصوراً معينة ، ونواحى خاصة فى تاريخ الملوك والحكام ، والأفراد البارزين ، والشعوب ، ووقائع الحروب ، وثمار الحضارات . . . فأين نحن من هذا كله !

صحيح أن أسلافنا فى الحضارة قد خلفوا لنا مؤلفات قيمة فى التاريخ ، تلقى أضواءً على ماضينا ، ولكن لم يكن لها أن تسير على الأسلوب المعروف فى كتب التاريخ المؤلفة فى الزمن الحديث ، على الرغم من دقة معلومات بعضهم وحرص بعض مؤلفيها على التثبت والتحرّى ، والسعى إلى إدراك مضمون الأحداث . وهى فى جملتها أسس جوهرية فى وضع مؤلفات علمية حديثة عن نواح من تاريخنا فى كل العصور . وصحيح أن بعض العلماء الأجانب قد وضعوا مؤلفات حديثة فى تاريخنا بعضها دقيق محايد ، وبعضها الآخر يخضع للغرض ويسعى إلى تحقيق المنفعة . وصحيح أن بعض هؤلاء العلماء قد عُنى بنشر شىء من الوثائق الخاصة بتاريخ مصر فى عهد أسرة محمد على ، وصحيح كذلك أن بعض الباحثين المصريين قد وضعوا بحوثاً فى نواح من التاريخ المصرى أو العربى أو الأوروبى منذ أقدم العصور حتى العصر الحديث . وهى إن تكن جهوداً فردية أو عملا لبعض الهيئات الجديرة بالتقدير ، إلا أنها لا تزال قليلة ، وتتفاوت قيمتها من الناحية العلمية فى بعض الأحيان ، لأن بعض الباحثين قد أعوزتهم الفرصة للاطلاع على المصادر التاريخية فى مظانها الأولى ، والتى لم تكن فى متناول أيديهم ، إذْ أنها منتشرة فى دور الأرشيف ودور الكتب فى الخارج ، أو لأن بعضهم ينهج نهج السرعة فى دراسته ، إما لأن هذه هى طبيعته ، وإما لأنه مضطر إلى ذلك بحكم ظروفه الاقتصادية ، وبذلك يخالف أساس البحث العلمى .

فينبغى على المعنيين بالدراسات التاريخية ، من الباحثين أو من الهيئات

الخاصة ، السعى إلى إنجاز أعمال تمهيدية واسعة النطاق وأساسية جداً لكى تسير الدراسات التاريخية سيراً علمياً منتظماً . وأول هذه الأعمال القيام بطبع الفهارس الخاصة بدور الكتب ودور المحفوظات فى مصر ، بالطرق العلمية الحديثة ، أى بتبويبها وتقسيمها ووضع الفهارس لها ، مما هو غير متوافر تماماً فى الموجود منها ، فضلاً عن غير الموجود أصلا . ثم وضع فهارس للمخطوطات والمطبوعات الخاصة بتاريخ مصر ، أو الأقطار العربية ، ثم نشر الأصول التاريخية نشراً علمياً حديثاً ، لكى يضاف ذلك إلى ما سبق فى هذه السبيل .

وتوجد مثلا آلاف من الوثائق التى لا تزال فى حكم المجهولة ، عن نواح هامة فى تواريخ مصر منذ بدء العهد العثمانى حتى عهد محمد على فى دار المحفوظات المصرية ، ويقابلها آلاف الوثائق عن هذه القرون ذاتها ، محفوظة فى دور الأرشيف فى القسطنطينية (استانبول)، وفى صقلية وناپلى وروما وپيزا وفلورنسا وجنوا والبندقية ، وفى ڤينا وپاريس ولندن وموسكو وواشنجطون . . . ومنها الأوراق الرسمية النهائية المعهورة بالإمضاءات والأختام ، ومنها مسوداتها بما تحتوى عليه من الملاحظات أو التعديلات ، وتُلقى معلوماتها بالأضواء على نواح كثيرة من تاريخ مصر والشرق الأدنى . والأغلبية الساحقة من هذه الوثائق لم تمسسها يد إنسان — أو على الأخص لم تمسسها يد باحث مصرى أو عربى بعد . فمن الضرورى أن تُحصر هذه الوثائق وتُجمع وتُبوّب — فى مصر — أو فى الشرق الأدنى — أو فى أوروپا — ثم تُنشر أجزاء منها نشراً علمياً حديثاً . وتستلزم هذه الأعمال جهود أفراد عديدين ، وتستغرق سنوات طويلة . وأظن أن ما عمله الغرب لنشر مجموعات ضخمة من الوثائق التاريخية[1] ، ومجموعة الوثائق التى نشرها الدكتور أسد رستم عن تاريخ سورية[2] ، وما نشره بعض العلماء الأجانب من الوثائق المستخرجة من

---

(١) من مجموعات الوثائق الخاصة بالتاريخ الأوروبى نجد مثلا :

Calender of State Papers, 300 vols. London.

Collection des Documents Relatifs à L'Histoire de France, 300 vols. Paris, 1835..

Sanuto, M. : I Diarii, 58 voll. Venezia, 1879..

(٢) من الوثائق التى نشرها أسد رستم نجد « الأصول العربية لتاريخ سورية فى عهد محمد على باشا » ٥ أجزاء . بيروت ، ١٩٣٠ — ١٩٣٣ . =

دور الأرشيف فى مصر وفى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية ، والمتعلقة بنواح من تاريخ مصر فى القرن التاسع عشر — أظن أن هذا كله جدير بأن يدفع القادرين منا إلى العمل على السير قُدُماً فى هذا المضمار الجوهرى .

وتواجهنا فى تاريخ بلادنا مراحل كثيرة جديرة بالدرس والبحث على مدى الزمن . وأذكر منها على سبيل المثال نواحى مختلفة فى تاريخ الدولة الأيوبية ، ونظم الحكم فى عهد المماليك ، وتاريخ التجارة العالمية فى مصر ، والبحرين الأحمر والأبيض المتوسط فى أثناء العصور الوسطى ، وتاريخ القبائل العربية فى مصر ، وتاريخ المدن المصرية ، وتاريخ الأزهر والمساجد ، وتاريخ الأديرة والكنائس ، والفتح العثمانى لمصر ، وتاريخ مصر المالى والإدارى فى العهد العثمانى ، وتاريخ على بك الكبير ، والنظام الإدارى فى عهد محمد على ، وتاريخ الطريق البرى ، وتاريخ الحركة العرابية ، وتاريخ الاحتلال البريطانى لمصر فى سنة ١٨٨٢ ، وتاريخ مصطفى كامل والحركة الوطنية ، وتاريخ المسرح المصرى . . .

ولقد نشأت فى الغرب فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، الجمعيات التاريخية التى تضم المشتغلين بالدراسات التاريخية ، وتؤيد جهودهم فى سبيل البحث العلمى الخالص . فأنشأ شتاين السياسى البروسى جمعية دراسات التاريخ الألمانى ، وأنشأ جيزو ، حينما كان وزيراً للمعارف فى فرنسا ، جمعية تاريخ فرنسا ، وكذلك قامت جمعيات تاريخية فى بلجيكا وأسبانيا . . . وأخذت تعمل فى نشر مجموعات ضخمة من الأصول التاريخية . وأخيراً نشأت فى مصر « الجمعية المصرية للدراسات التاريخية » فى الأربعينيات من هذا القرن ، وأخذت تعمل فى حدود إمكانها على تشجيع الدراسات التاريخية .

= وأسد رستم (١٨٩٤ — ١٩٦٥) درس فى الجامعة الأمريكية فى بيروت وفى جامعة پرنستون — على ما أذكر — وعلم فى الجامعة الأولى ثم فى الجامعة اللبنانية وأشرف على المتحف الحربى فى بيروت . وهو من رواد الدراسة المنهجية فى علم التاريخ فى العالم العربى . ومن منشوراته « مصطلح التاريخ » و « الروم » و « تاريخ اليونان من فيليپوس المقدونى إلى الفتح الرومانى » . ونشر بالاشتراك مع فؤاد إفرام البستانى « كتاب تاريخ الأمير فخر الدين المعنى » للشيخ أحمد بن محمد الخالدى الصفدى . وكان له الفضل — مع الأستاذ محمد شفيق غربال — فى بقائى فى إيطاليا فى سنة ١٩٣٥ ، حينما ضقت ذرعاً بسوء تقدير الجامعة المصرية للدكتوراه الإيطالية ، حتى أوشكت على تغيير مكان بحثى من روما إلى لندن ، وذلك باستماعى لنجوى خطابه الرقيق إلى ، فبقيت ، وكان من ثمار ذلك أنى ترجمت الكوميديا الإلهية إلى اللغة العربية . وظللت وثيق الصلة به منذ سنة ١٩٣٠ فى مصر ولبنان وسورية .

ومن أوجه النشاط فى دراسة التاريخ فى عالم الغرب ، ما نجده من التوسع فى إصدار المجلات التاريخية الخاصة بالتاريخ بعامة أو بفروع التاريخ بخاصة *. ويصدر عن الجمعية المصرية للدراسات التاريخية مجلة سنوية خاصة منذ سنة ١٩٤٨ ، ولعله يكون من الميسور زيادة الصادر منها فى كل سنة .

والدراسات التاريخية ، كغيرها من سائر فروع العلم والمعرفة ، فى حاجة إلى المال والتأييد والتيسير عليها من جانب المسؤولين والقادرين ، لكى تتمكن من القيام بواجبها العلمى . ولا بد فى الدراسات العلمية من الجهد المتواصل والإخلاص فى العمل ، والبُعد عن الزخارف وأبهة المناصب . ونحن فى أشد الحاجة إلى إيجاد بيئة علمية صحيحة تعمل للعلم والمعرفة وتضع تقاليد تاريخية وطيدة ، وتقوم ببعض الواجب نحو العلم والوطن والتاريخ .

---

* من المجلات التاريخية فى الغرب نجد مثلا :

American Historical Review. New York, 1879 ..

English Historical Review. London, 1886 ..

La Revue des Questions Historiques. Paris, 1886 ..

Rivista Storica Italiana. Torino, 1884 ..

obeikandl.com